"لا تدرى الغَيْرَى أعْلى الوادى من أسفله !"

[كشف الخفاء ج ٢]

رفقا بالقوارير

الطريق إلى السعادة الزوجية !

خير ما أوصى به رسولنا الكريم أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها – ما رواه مسلم فى فضل الرفق (مختصر صحيح مسلم للترمذى) .

(١) عن عائشة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : «**إن الرفقَ لا يكون فى شىء إلا زانه ! ولا يُنزع من شىء إلا شانه !**» . [حديث رقم ٧٩]

(٢) وعنها : «**ياعائشةُ ؛ إن اللهَ رفيق يحب الرفق ، ويُعطى على الرفق مالا يُعطى على العنف ، وما لا يعطى على سواه**» . [حديث رقم ٧٨]

(٣) وجاء فى الحديث (رقم ٧٦) : «**من يُحرم الرفقَ يُحرَم الخيرَ**» .

وخير ما تستعين به الزوجات والأزواج ، والأولاد فى مواجهة الحياة «**الرفق**» .. تبادل الرفق ، والبعد عن العنف ، فمن يحرم الرفق يحرم الخير كله . جربى ياسيدتى ، وما ظنك بأسرة يتبادل أفرادها الرفق ؟!

وقد قال أهل المنطق : إذا علا الصوت هبط المنطق !

فما بالنا بالأيدى حين تمتد بالأذى ؟!

وجدير بنا أن نضع أمام عيوننا وصايا السابقين وخيرتهم ..

وصية أبٍ لابنته

جاء فى «عيون الأخبار» لابن قتيبة :

قال أبو الأسود لابنته :

* إياك والغَيرة ! ؛ فإنها مفتاحُ الطلاق !

* وعليك بالزينة ، وأزينُ الزينة الكُحل .

* وعليك بالطِّيب ، وأطيبُ الطِّيبِ إسباغُ الوضوء .

* وكونى كما قلت لأمك فى بعض الأحايين :

خُذى العفوَ[1] منى تستديمى مَوَدّتى
ولا تبطقى فى سَوْرتى حين أغضَبُ
فإنى وجدتُ الحُبَّ فى الصّدرِ والأذى
إذا اجتمعا لم يلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَبُ
ولا تَنْقُرينى نَقْرِكِ الدُّفّ مرة
فإنك لا تدرين كيف المُغَيّبُ
ولا تُكثرى الشكوى فتذهبَ بالهوى
ويأباك قلبى ، والقلوب تَقَلَّبُ!

الغيرة بين ماضٍ وحاضر

*عجبا لما أصبحنا عليه اليوم من شيوع تلك «**الغيرة الممقوتة**» على الساحة!

* وتقلّص «**غيرتنا المحمودة**» التى يحبها الله ورسوله والمؤمنون والمؤمنات !

* أين غيرتنا على الدين ، والعِرض ، والأرض ، والشرف والكرامة ؟!

* وأين نساء اليوم من أولئك اللاتى كن يسارعن إلى مبايعة الرسول ﷺ على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين النبى ﷺ فى معروف ؟!

* وأين نساء اليوم من أولئك اللاتى كن يَغَرْن فى الله ولله ، ويعملن على إعداد جيل يحمل راية الإسلام ، وينشره فى كل البقاع ! ، ويحمى الحمى ، ويتحمل المسئولية !

* وأين تلك الغيرة المحمودة ؟! إنها لتكاد تختفى لتظهر على الساحة تلك الغيرة الممقوتة المرذولة !

ألا ما أبعد المسافة بين ماض قد تولى ، وبين حاضر نحياه ! فماذا كان فى الماضى ؟ وما القضية التى كانت شغلهن الشاغل ؟

---

(١) العفو : ماكان سهلا على النفس لاتكلف فيه ولا مزاحمة.

من مجالات غيرة النساء فى صدر الإسلام

وافدة النساء إلى النبى ﷺ

لقد كان شغلهن الشاغل مشاركة الرجال فى الأجر والخير ؟! **ولا عجب فالنساء شقائق الرجال** ! فلقد وفدت «**أسماء بنت يزيد الأنصارية**» – وهى التى لُقّبت بخطيبة نساء العرب ورسولتهن – إلى النبى ﷺ وهو بين أصحابه ، فقالت[1] :

بأبى وأمى أنت يارسول الله !

أنا وافدة النساء إليك ؛ إن الله – عز وجل – بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنَّا بك وبإلهك !

إنا – معشر النساء – محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم !

وإنكم – معشرَ الرجال – فُضِّلْتُمْ علينا بالجُمع ، والجماعات ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجَلّ !

وإن أحدَكم إذا خرج حاجا ، أو معتمرا ، أو مجاهدا حفظنا لكم أولادكم وأموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربَّينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى الأجر والخير؟!

فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه ، ثم قال : «**هل سمعتم مسألةَ[2] امرأةٍ قط ، أحسنَ من مسألتها فى أمر دينها ؟!**» .

فقالوا : يارسول الله ؛ ما ظنَنّا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا !!

فالتفت النبى ﷺ إليها وقال : «**افهمى أيتها المرأة ، وأعْلِمى مَن خلْفك من النساء أن حسن تبَعُّل[3] المرأة لزوجها يعدل ذلك كُلَّه**» .

---

(١) أسد الغابة جزء ٧ ص ١٩ . (٢) مسألة : سؤال .

(٣) تبعل المرأة : قيامها بواجب الزوجية لبعلها.

فانصرفت المرأة ، وهى تُهلل ، حتى وصلت إلى نساء قومها وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ﷺ ففرحن !

فإلى الذين يُثيرون العداء بين النساء والرجال كفى تفريقا بينهما ، وحسب المرأة قول الرسول ﷺ : «**النساء شقائق الرجال**[1] » !

وإلى هؤلاء الذين يبذرون بذور الكراهية والغيرة الممقوتة بين الرجال والنساء نقدم إليهم ما رواه الحاكم عن أم سلمة – رضى الله عنها – أنها قالت :

«يغزو الرجالُ ، ولا يغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث» فأنزل الله تعالى الآية [رقم ٣٢ من سورة النساء] تقول : ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)**﴾ [أسباب النزول للسيوطى والنيسابورى] .

وهكذا وضع رسولنا الكريم ﷺ لتنظيم الحياة فى المجتمع الإسلامى ميزانا من العدالة ، لا ترتفع له كِفَّة إلا بحق ، ولا تهبط إلا بحق !

وفى ظل هذه العدالة تسلم الأسر من صراع الأبناء والأقارب ، وتستقر نفوس الأفراد فيها ، وتصفو من أكدار الخوف والقلق والحقد ، وتنصرف عن تدبير المكائد والفتن والجرائم إلى ما هو أجدى ، من التفكير البنّاء ، والعمل المثمر ، وبذل المجهود فيما له غَناؤه فى حياة أفرادها ، وفى حياة أمتها !

ولقد كان الرسول ﷺ مثلا أعلى فى العدل بين الزوجات ، وكثيرا ما كان يقول : «**اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك ؛ فلا تؤاخذنى فيما لا أملك**»[2] .

وفى ظل تلك العلاقة الوثيقة بين النساء والرجال ظهرت على الساحة نماذج مشرفة .

---

(١) أخرجه أبو داود عن أنس رضى الله عنه .

(٢) قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، وضعفه الألبانى فى « إرواء الغليل» ، وفى رواية : اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك» .

غيرة السيدة صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها على الإسلام والمسلمين

يقول الحافظ شمس الدين الذهبى فى تاريخ الإسلام : «وكانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع – حصن حسان بن ثابت – وكان معها فيه النساء والوِلدان .

قالت : فمرّ بنا يهودى فجعل يُطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، ونقضت ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنّا . والنبى ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا[1] !

وتقول صفية : فقلت : ياحسان ؛ إن هذا اليهودى كما ترى يُطيف بالحصن، وإنى – والله – ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود !

وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله .

قال : يغفر لك الله يا ابنة عبد المطلب !

والله لقد عرفت ما أنا بصاحب[2] هذا !

فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئا احتجزت[3] . ثم أخذت عمودا ، ونزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته!» .

وهكذا تضرب السيدة صفية رضى الله عنها بغيرتها المثل فى الدفاع عن العرض والأرض والكرامة ، والدين فى مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين !

وصدق فيها قول المتنبى :

فلو كان النساء كمثل هذى ... لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيثُ لاسم الشمسِ عيب ... ولا التذكيرُ فخر للهلال

---

(١) كان ذلك فى غزوة الخندق حين تآمر اليهود مع المشركين على حصار المسلمين والقضاء عليهم فجاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهنا دفعت الغيرة صفية عمة الرسول ﷺ فهبت لتحمى حماها وتصون من فى حوزتها من النساء والأطفال ، وتقضى على ذلك الجاسوس الذى جاء ليضرب الجيش من الخلف محاولا زعزعة نفوس المرابطين عن الخندق بالنيل من نسائهم وأولادهم.

(٢) لم يكن حسان رضي الله عنه يستطيع مواجهة أعداء الإسلام بسلاح غير سلاح الشعر والكلام !

(٣) شدت إزارها على وسطها وتهيأت للمواجهة.

ألا ما أشد حاجتنا الآن إلى مثل صفية ! فبمثلها تنقطع رجل الآثمين عن التسلل بيننا لضربنا فى مقتل !

إن وجود أمثالها على الساحة العربية والإسلامية يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يقوموا بعمليات التجسس التى تروع الآمنين ، وتجنى على المسالمين !

وفى وجود أمثالها حماية للأخلاق ، وصون للكرامة ، وسند للجيش المحارب، وإن شئت فقل : خط الدفاع الثانى ! ، وتلك ثمرة النظرة الإسلامية للمرأة على أنها شقيقة الرجال .

فمتى .. متى .. ثم متى يعيد التاريخ نفسه ، وتعود المرأة العربية المسلمة كما كانت فى أسمى صورها ، لتكون سدا حصينا يحول دون اختراقنا من الداخل ؟!

نموذج الغيرة التى لم تتعد حد الإعتدال وعُفى عنها

بمثل هذه اللباقة فلتتصرف الزوجات الغيورات :

* روى مسلم فى صحيحه عن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ كان يقول :

«إنى لأعلمُ إذا كنت عنى راضيةً .... وإذا كنت على غَضْبى !»

قالت : فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟

قال : «أما إذا كنت عنى راضيةً؟ فإنك تقولين : لا وَربّ محمد !

وإذا كنت علَىّ غَضْبَى قلت : لا ورب إبراهيم»

قالت : قلت: أجَلْ[1] ، والله يا رسول الله، ما أهجرُ إلا اسمَك»

* ويقول الإمام النووى : قال القاضى : مُغَاضَبةُ عائشةَ للنبى ﷺ هي من «الغيرة» التي عفى عنها للنساء في الكثير من الأحكام ، واحتج بما روى عن النبى ﷺ : « **لا ترى الغيراء أعلى الوادى من أسفله**» [2] .

ولولا ذلك لكان على عائشة فى ذلك من الحرج ما فيه لأن الغضب على النبى ﷺ وهجره كبيرة عظيمة!

(١) حرف بمعنى نعم. (٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء:ج٢ : حديث صحيح.

ولهذا قالت : لا أهجُر إلا اسمَك.

فدل على أن قلبَها وحبَّها كما كان !

وإنما الغيرة فى النساء على فرط المحبة».

وأقول : أصل الغيرة من الفضائل الدينية والخلقية، ما فى ذلك شك !

ولكنها كغيرها من الفضائل إذا جاوزت حدها انقلبت إلى ضدها ، وأصبحت رذيلة ممقوتة!

فهى لا تعد من الفضائل إلا إذا التزم بها صاحبها حد الاعتدال ، ولم يقع منه فيها إفراط ، ولا تفريط بحال من الأحوال.

أما إذا اختل شىء من ذلك فإنها تكون خَصلة بغيضةً ، وغيْرةً لم تصب محلّها، أو غيرة طائشة ، أو غيرةً جاءت بعد أوانها !

أيهما أغير : النساء أم الرجال ؟

وربما يتساءل الكثيرون عن غيرة النساء ، وغيرة الرجال ، وأيهما أشد غيرة؟

* **هناك من يرى أن غيرة الرجال على المرأة أعنف وأشد** ، وأن غيرة المرأة لا تبلغ مبلغ غيرة الرجل على المرأة ، وفى ذلك يقول صاحب «تحفة العروس» :

وأما غيرة المرأة على الرجل ، فلا تبلغ – وإن أفرطت – مبلغَ غيرة الرجال على المرأة ، ولذلك أحل الله للرجل وطء أربع من النساء ، ووطء ماشاء من السَّرارى[1] لما علم أن فى صبر المرأة محتملا .

ولم يجعل للمرأة أن تنظر إلى غير زوجها لما علم أن صبره لا يحتمله، وإن حلُم !

* **وهناك من يرى أن غيرة المرأة أعنف وأشد** .

ويرى الأستاذ العقاد أنهن أشد غيرة ، ولذا كن أسرع تقليدا لأن المشاكلة بينهن فى المناقب والمفاخر أقرب مما هى بين الرجال .

* * * * *

(١) جمع سُرِّية ، وهى الأمة المملوكة .

آخر عهد السيدة عائشة - رضى الله عنها - بالغيرة على الرسول ﷺ

عندما عاد ﷺ من حَجة الوداع إلى المدينة فما أقام بها غير قليل حتى أُرِقَ ذات ليلة فخرج إلى البقيع[1] يُحيِّى الراقدين هناك .

فلما أصبح مرّ بعائشة فى الغداة ، فوجدها تشكو صُداعا ، وتئن متوجعة قائلةً : وارأْساه!

قال وقد بدأ يُحسُّ ألم المرض: « **بل أنا والله ياعائشة وارأساهُ**» .

فلما كررت الشكوى داعبها بقوله: «**وما ضَرّك لو متِّ قبلى فقمتُ عليك، وكفّنتك ، وصليت عليك ، ودفتك**» .

فصاحت وقد هاجت غيرتها :

«ليكن ذلك حظّ غيرى !

والله لكأنى بك لو فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى فأعرسْت فيه ببعض نسائك»[2] .

فأشرق وجهه ﷺ بابتسامة لطيفة ، وسكن عنه الألم هونًا مّا .

* «ويرى الإمام الطبرى» أن غيرة النساء مسموح لهن فيها ، ولا تُنكر من أخلاقهن ، ولايُعاقبن عليها : لأنهن فُطِرن عليها ، ولا يملكن أنفسهن عندها!

واستدل بالحديث الشريف الذى سبق ذكره: «**لا تدرى الغيرى أعْلى الوادى من أسفله**[3]» .

تُرى .. ما بواعث الغيرة عند المرأة ؟

وماذا يقول محللو شخصيتها ؟

---

(١) مدفن المدينة .

(٢) السيرة ٢٩٢١٤ – وتاريخ الطبرى : ٣/ ١٩١ ؛ أعرست : تزوجت ودخلت على عروسك .

(٣) كشف الخفاء ج٢ رقم ١٨١٠ ، وقال العجلونى : هو حديث صحيح .

بواعث الغيرة لدى المرأة

وألوان الغيرة فى طبائع النساء!

بواعث الغيرة لدى المرأة :

وعندما نبحث عن بواعث الغيرة لدى المرأة نجد عجبا!! فالذين يحللون شخصيتها يقولون :

* إنها لا تستطيع أن تطمئن إلي صداقة امرأة أخرى! .

* ولا تستطيع أن تطمئن إلى حب الرجل!

* إن صديقتها قد تحسدها على ما هي فيه من نعمة شاملة ؛ مما يجعلها تمكر بها ، وتضللها ، ولاتجد غضاضة فى أن تسلبها زوجها أو خطيبها !

* والرجالُ عندها لا أمانَ لهم ، فقد يخونها زوجها، وقد يغْدُر بها، وقد يتخلى عنها !

من أجل هذا نراها محرومةً من نعمة الطُّمأنينة.. والأمن .. والأمان.. والاستقرار .. وسكينة النفس .. وهدوء البال، وراحة الضمير!

وهذا «**الحرمان**» يولد فى نفسها الحذر ، والغيرة من النساء جميعاً.

والحذر من الرجل زوجا كان أم خطيبا ، والغيْرة الشديدة عليه!

* ونراها تحيا في قلق دائم ، وخوف متواصل ! وليس هذا القلق المشوب بالحذر إلا مبعث غيرتها ! فهى لفرط إحساسها بضعفها الطبيعي ، وحاجتها إلى رجل يحميها ، ويصونها، ويقف إلى جانبها ، لا تستطيع أن تتحرر من مشاعر الخوف والقلق !

* إنها تخاف على نفسها .. وعلى سمعتها .. وعلى مستقبلها.. وعلى مستقبل أبنائها خوفا يولّد فيها غيرة على الرجل حرصا منها على حياة مستقرة آمنة! وليس هذا فحسب هو مبعث غيرتها؛ بل إن إحساسها بكرامتها ، وشعورها بأنها أقدر وأحسن من غيرها على أداء واجب الزوجية، ربما دفعها إلى الغرور والزهو والاعتداد بنفسها إلى حد الحماقة!

* وهذا الحرص على الكرامة ربما لعب دورا عظيما فى إثارة غَيرتها!

*وهكذا نجد أن المرأة تغار وتتعذب لشعورها بالضعف أمام الرجل .. والضعف أمام الطبيعة .. والضعف أمام المجتمع.. والضعف أمام كل مخلوقة أجمل منها ! .

كل ذلك يجعلها تشعر بأنها مجبرة على مكافحة جميع ألوان الضعف للتفوق على أترابها [1] ، والاحتفاظ برجلها، والحيلولة دون عبثه، أو تطلعه إلى غيرها مما يذل أنوثتها وينتهك كبرياءها ، ويشهر بضعفها ، ويجعل منها مادة لشماتة النساء ، وسخريتهن !

وليس هناك من شك فى أن الحرص على الكرامة يولد غيرة المرأة، ويُثير كوامن نفسها !

وإذا كان لها أن تغار ، فإن عليها أن تكبح جماحَ غيرتها ، وتتذرع بالصبر !

وعليها أن تتذكر أن النساء المؤهلات لخراب بيتها هن صديقات الزوجة ، فلتكن منهن على حذر !! ولتحسن التصرف قبل فوات الأوان !

الغيرة فى طبائع النساء ألوان !

كما يقال «**تعددت الأسبابُ والموت واحد**» فإن الغيرة فى طبائع النساء ألوان؛ ويذكر «الأستاذ العقاد» فى دراسته عن «**الصديقة بنت الصديق**» أربعة ألوان من الغيرة النسائية فيقول!

* **تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه**، ولو شغلته[2] الذكرى ، ولم تشغله المودة الحاضرة ؛ لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة.

* وتغار المرأة **من المرأة الجميلة** ، وإن لم تنافسها على رجل تحبه .

* وتغار المرأة من **شريكتها فى رجلها** كائنا ما كان حظها من الجمال !

* وتغار **من كل مزية – غير الجمال** . ما كان فيها سبيل إلى الحُظْوة فى القلب الذى تريده لها ، ولا تطيق المزاحمة عليه .

«والأنثى االغَيْرى» فى جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هناك فى

(١) من يماثلنها فى السن .

(٢) كذكره ﷺ السيدة «خديجة» بعد موتها . وانظر مسلم فضائل خديجة (رقم ٧٧) قالت : فأغضبته يوما فقلت : خديجة ، فقال رسول الله ﷺ : «إنى قد رزقت حبها» .

سيرة « **السيدة عائشة**» كما روتها هى ، وكما رواها غيرها .

ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذى ينبغى لها، والحق النبوى الذى هى جاهدة أن توقره وترعاه !» .

قالت كتب السِّير : وغارت زوجات النبى ﷺ ولا كعائشة !

وكان غضبُ النبى ﷺ من غيرتها غضب تأديب ، وتهذيب ، لاغضب سُخطٍ وتأنيب !

فكان يعذرها فيما يمسه ، ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه ، أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى أحبها هذا الحب أن تقلع عنه ، وتعرف موضع الملامة فيه ، فقلما لامها فى شىء يمسه من غيرتها !

ولكنه ﷺ كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس بها أناسا آخرين ، فيؤاخذها مؤاخذة المؤدب الرفيق ، ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه ، كما حدث عندما عابت صفية بقِصرِها فقال لها : «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»[1] .

غيرة عائشة رضى الله عنها من حفصة أم المؤمنين !

روى مسلم فى صحيحه (حديث رقم (٩) من فضائل أم المؤمنين عائشة) –رضى الله عنها – قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه ، فطارت القرعة على عائشة وحفصة[2] فخرجتا معه جميعا.

وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها ، فقالت حفصة لعائشة : ألا تركبين الليلة بعيرى ، وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر[3].

قالت : بلى[4] .

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة.

---

(١) فعنها – رضى الله عنها – قالت : قلت للنبى ﷺ:حسبك من «صفية» كذا وكذا . وقال بعض الرواة : تعنى قصيرة ، فقال : «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» . رواه أبو داود والترمذى ، وقال «حديث حسن صحيح . ومعنى مزجته ، أى خالطته مخالطة يتغير طعمه بها ، أو ريحه لشدة نتنها وقبحها . (٢) طارت القرعة : أى خرجت القرعة لهما .

(٣) أى ماذا يكون ؟ وماذا يحدث ؟ (٤) إجابة بالموافقة .

فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة ، وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا فافتقدته[1] عائشة فغارت ! فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[2]، وتقول : يارب سلّطْ على عقربا أو حيّة تلدغنى[3] !

رسولُك، ولا أستطيع أن أقول له شيئا» .

* * * *

ومثل هذه الغيرة هى غيرة محمودة .. وهى دليل الحب وارتباطه ، وهى الحافز للإنسان لكى يحمى نفسه ، ويؤكد ذاته، ويطور، ويدعم إمكاناته، وقدراته..

وهى حالة بناء مستمر حالة يغذيها قلق صحى مطلوب وضرورى . وكيف لا وهى غيرة أساسها الحب ، وهدفها الخير .

غيرة السيدة حفصة من السيدة صفية - رضى الله عنهما-

وموقف الرسول ﷺ مما كان يحدث بين نسائه ﷺ

فى كتابه : «**حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسول الله فى النسوة**» يقول السيد محمد صديق خان:

المختار فى مشاجرة الصحابيات ألا يخاضَ فيها ، ويحسن الظن بهن ؛ فإن ذلك من عمل الشيطان . بلغ صفية –رضى الله عنها – أن حفصة –رضى الله عنها – قالت : إنها بنت يهودى؛ فبكت!

فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى ، فقال :

«**ما يبكيك؟**» قالت : قالت لى حفصة: أنت ابنة يهودى ، فقال النبىﷺ :

« **إنك لابنة نبى ، وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى، فبم تفتخر عليك؟ ثم قال : اتقى الله ياحفصة**[4]» !

وهكذا كان يعالج الرسول ﷺ النفوس ، ويستَلّ منها الغيرة، ويداوى الأدواء الاجتماعية .. وغيرة الضرائر من الأمور التى جبلت عليها النفوس.

(١) لم تجده . (٢) الإذخر : نبت معروف توجد فيه الهوام غالبا فى البرية . وحملها على هذا فرط الغيرة على رسول الله ﷺ . وأمر الغيرة هنا معفو عنه .

(٣) هو دعاء بغير نية حملتها عليه الغيرة ، فهى غير مؤاخذة به ، ولاتجاب فى الغالب – قال الله تعالى : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر** ﴾ الآية [يونس : ١١]

(٤) أخرجه الترمذى ، وصححه والنسائى . والحديث دليل على اعتبار النسب البعيد .

قال عياض :

ذلك لما أُجبل عليه الضرائر من الغيرة ، لاسيما بالطارئة عليهن!

وفى الحديث الذى رواه النسائى عن أنس بن مالك قال : قالوا : يارسول الله؛ ألا نتزوج امرأة من الأنصار؟! قال : «**إن فيهم لغيرةً شديدةً**»(١).

وما حاول الرسول ﷺ أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن من نوازع حواء وأهوائها . وما كان أحلمه ﷺ وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له ، أشفقن من جمالها ، فأوصَينها أن تستعيذ بالله حين يدخل المصطفى عليها استجلابا لمحبته ورضاه ! ففعلت ، وسرحها المصطفى قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه: «**إنهن صواحبات يوسف وإن كيدهن عظيم**»(٢) .

غيرة نساء النبى ﷺ من عائشة رضى الله عنهن !

وكان لابد لنساء النبى ﷺ أن يغرن من عائشة رضى الله عنها .

ففى الحديث الذى رواه مسلم من فضائل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها (رقم ٨٥) ما يصور لنا ما كان من نساء النبى ﷺ من الغيرة من عائشة رضى الله عنها .

«عن عائشة أن الناس كانوا يتحرون (٣) بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ» .

وفى حديث رقم (٨٥) : أن عائشة زوجَ النبى ﷺ قالت : أرسل أزواج النبى ﷺ فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معى فى مرطى(٤) ، فأذن لها، فقالت : يارسول الله؛ إن أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة، وأنا ساكتة.

قالت : فقال لها رسول الله ﷺ: « **أىْ بُنيّةُ ، ألست تحبين ما أحب ؟**» فقالت: بلى . قال : «**فأحبى هذه**»

قالت : فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى

---

(١) أخرجه النسائى فى كتاب النكاح – آداب المرأة الغيراء (١٩/٦) .

(٢) البخارى فى كتاب الأنبياء (٣٣٨٤) والترمذى فى المناقب (٣٧٥٤)

(٣) يفضلون ويختارون ويقصدون يوم عائشة . (٤) غطاء .

أزواج النبى ﷺ فقلن لها : ما نُراك أغنيت عنا من شىء ، فارجعى إلى رسول الله ﷺ فقولى له : إن أزواجك ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة!

فقالت فاطمة؛ والله لا أكلمه فيها أبدا!

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبى ﷺ «زينب بنت جحش » زوجَ النبى ﷺ، وهى التى كانت تسامينى[1] منهن فى المنزلة عند رسول الله ﷺ .

ولم أر امرأة قطّ خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله؛ وأصدق حديثا، وأوصلِ للرحم ؛ وأعظمَ صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تَصَدّقُ به ، وتقَرّب به إلى الله تعالى ، ماعدا سورةً من حدّة كانت فيها ، تسرع منها الفيئة[2] . قالت ؛ فاستأذنت على رسول الله ﷺ ..

ورسول الله ﷺ مع عائشة فى مِرْطها على الحالة التى دخلت فاطمة عليها ، وهو بها .

فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت :

يارسول الله، إن نساءك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة!

قالت : ثم وقعت بى ، فاستطالت على[3] ! وأنا أرقب رسول الله ﷺ ، وأرقب طرفه ، وهل يأذن لى فيها ؟!

قالت : فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لايكره أن أنتصر !

قالت : فلما وقعت بها ، لم أُنْشِبْها حتى أنحيت[4] عليها !

قالت : فقال رسول الله ﷺ – وتبسم – «**إنها ابنةُ أبى بكر** !!» ويعلق الإمام

---

(١) تسامينى : تعادلنى وتضاهينى فى الحظوة والمنزلة الرفيعة ، مأخوذ من السمو وهو الارتفاع .

(٢) السَّورة : الثوران ، وعجلة الغضب ، والحدّة : شدة الخلق ، وثورانه . ومعنى الكلام : أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق ، وسرعة غضبٍ تسرع منها . والفيئة : الرجوع أى : إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعا ولا تصر عليه . تصدق : أى تتصدق . وكذلك تقَرَّب . فحذفت إحدى التاءين تخفيفا. (٣) استطال عليه بكذا : تفضل .

(٤) أنحيت عليها : أقصدتها واعتمدتها بالمعارضة . ومعنى لم أنشبها : لم أمهلها . ثم وقعت بى : أى: استطالت على ، ونالت منى بالوقيعة فىّ . ويعلق الإمام النووى قائلا : اعلم أنه ليس فيه دليل على أن النبى ﷺ أذن لعائشة ولا أشار بعينه ولا غيرها بل لايحل اعتقاد ذلك ، فإنه ﷺ تحرم عليه خائنة الأعين . وإنما فيه : أنها انتصرت لنفسها ، فلم ينهها ! .

النووى بقوله : فالمراد بالحديث : طلب المساواة فى محبة القلب ، لا العدل فى الأفعال ، فإنه كان حاصلا قطعا.

ولهذا كان يطاف به فى مرضه عليهن حتى ضعف ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة فأَذِنّ له.

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن -رحمة الله عليها -: «وما غيرتها الجامحة بعد هذا كله إلا مظهر حب عميق لزوجها الغالى ، ودليل تعلق بالمصطفى ﷺ، ورغبة لا تقاوم فى الاستئثار بالحظوة لديه.

ونظلمها، **ونظلم نبينا الكريم إذا تكلفنا نفى "غيرة عنها**، ووصفنا ما بينها، وبين ضرائرها « بالاتفاق الرائع »! وما لها ألا يغار مثلها على مثله!

ثم تقول: «وكانت عائشة - رضى الله عنها - بين أزواج النبى ﷺ أشدهن غيرة عليه، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه» . لكنها تلتمس لها العذر قائلة!

«وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد «خديجة» وأنها وحدها التى تزوجها بكرا، وأنها «**عائشة بنت أبى بكر**» .

وحين كانت الغيرة تشتط بها كان الرسول ﷺ يوسع لها العذر فيقول : «**وَيْحَهَا ! لو استطاعت ما فعلت**» وقد يسألها : «**أغرت**» فتجيب : ومالى لا يغار مثلى على مثلك[1] ؟!

دروس للزوجات

والرجوع إلى العقل مطلوب مرغوب فيه وبخاصة بين الزوجيين ..

وعلى الزوجة أن تكون يقظة ، وأن تعالج مايطرأ على زوجها من تغير قبل فوات الأوان فى لباقة واقتدار !

كانت «**أم سلمة**»(*) بنت يعقوب بن عبد الله المخزومى زوجة الخليفة السفاح ، وكان يحبها حبا شديدا؛ وتقع من قلبه موقعا عظيما فحلف لها يوما ألا يتخذ عليها سُرِّيَّة [2]ولايتزوج عليها امرأة أخرى ، ووفَّى لها بذلك .

---

(١) السمط الثمين : ٨٠

* من كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى : المختار من ذيل ثمرات الأوراق .

(٢) السرية : الحظية المعشوقة المحبوبة . والجمع السرارى .

وفي أحد الأيام خلا به خالد بن صفوان ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، لقد فكرت في أمرك، وسعة ملكك وأنك ملّكت نفسك امرأة ، واقتصرت عليها ، فإذا مرضت ، مرضت ، وحرمت نفسك التلذذ بالسّراري ، واستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناسهن للتمتع بما تشتهي منهن .

فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيراء [1] .

والعنيقة الأدْماء [2] .

والمُولّدات[3] اللواتي يفتنّ بحلاوتهن الرجال !

ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء، واللّعْساء[4] من مولّدات البصرة والكوفة .

وذوات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة[5] ، والأوساط المخصرة[6]، وحسن زيّهنّ وشكلهن ، لرأيت فتنا ، ومنظرا حسنا .

وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار ، والنظر إلى ما عندهن من الحياء ، والتخفر ، والدلال والتعطر[7] ؟!

ولم يزل خالد يجيد في الوصف ، ويُكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه!

فلما فرغ قال له أبو العباس : ويحك ، والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته ! فأعِده فزاد فيه.

ثم انصرف خالد ، وبقي العباس مفكرا مغموما ، فدخلت عليه «أم سلمة» وكانت تبرُّه كثيرا ، وتتحرى مسرّته ، وموافقته في جميع ما أراده ، فقالت له : مالي أراك مغموما يا أمير المؤمنين ؟ ، فهل حدث أمر تكرهه» أو أتاك أمر ارتعت[8] له ؟!

قال : لم يكن شيء من ذلك . قالت : فما قصتك ؟ فجعل يكتم عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد .

قالت : فما قلتَ لهذا الأحمق ؟

---

(١) الناعمة المتثنية .
(٢) العنيقة : ذات العنق الطويل . والأدماء : السمراء .
(٣) المختلطات الأجناس . النساء .
(٤) اللعس : لون الشفة إذا كان يميل إلى السواد ، وهو يستملح في
(٥) القدود المهفهفة : الرشيقة المتمايلة .
(٦) ذات الخصر الجميل .
(٧) التخفر : الحياء والخجل ، والدلال ، والتمنع .
(٨) ارتعت له : انزعجت منه .

قال: سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه؟

فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيدا، وأمرت بضربه والتنكيل[1] به!

قال خالد : وانصرفت إلى منزلى مسرورا بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامى ، وإعجابه بما ألقيت إليه ، وأنا لا أشك فى الصلة[2] .

فلم ألبث أن جاء العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة، فوقفوا علىّ ، وسألوا عنى ، فعرفتهم نفسى ، فأهوى[3] إلى أحدهم بعمود كان فى يده ، فبادرت إلى الدار ، وأغلقت الباب ، ومكثت أياما لا أخرج من منزلى.

وطلبنى أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، وقلت :

لم أَرَ دَمَ شيخٍ أضيعَ من دمى ، وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل ، فدخلت على أمير المؤمنين ، فوجدته جالسًا ، فأومأ[4] إلى بالجلوس ، فثاب[5] إلىَّ عقلى!

وفى المجلس باب عليه ستور قد أُرْخِيت، وخلفه حركة، فقال لى : يا خالد ، منذ ثلاث لم أرك .

قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين .

قال : إنك قد وصفت لى فى آخر مرة كنت بها معنا من أمر النساء والجوارى ما لم يطرق سمعى قط كلام أحسن منه ، فأعده علَىّ.

قلت : نعم يا أمير المؤمنين .....

أعْلَمْتُك أن العرب اشْتَقّتْ اسم الضَّرَّة من الضَّرَر، وأن أحداً لم يكن عنده امرأتان إلا كان فى ضرر وتنغيص!

قال : ويحك ! ، لم يكن هذا فى حديثك ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، إن الثلاث من النساء كأَثَافِى[6] القدر تغلى عليها أبدا.

وإن الأربع شرٌّ مجموعٌ لصاحبه يُمرِضنه، ويُسْقمنه، ويُضْعفْنه .

وإن أبكار الإماء رجال!

---

(١) نكل به : عذبه ، وجعله موعظة وعبرة لغيره .

(٢) فى أن أمير المؤمنين سوف يصلنى بهداياه !

(٣) أهوى بيده : رفع يده ليضرب بها .

(٤) أومأ إلىّ : أشار .

(٥) ثاب إلىَّ .. رجع إلى عقلى .

(٦) الأثافى : جمع أثفية : الحجر يوضع فوقه القدر «الكانون» وهو مكون من ثلاثة أحجار .

فأقسم أبو العباس أنه ما سمع من هذا شيئا قط !

قال خالد : بلى يا أمير المؤمنين !

وعرفتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأن عندك ريحانة الرياحين ، وأنت تطمح بعينيك إلى الإماء والسرارى!

فقال أبو العباس : ويحك أتكذبنى ؟!

فأجاب : أفتقتلنى يا أمير المؤمنين ؟!

قال خالد : فسمعت ضحكا من وراء الستر ، وقائلا يقول : صدقت والله ياعماه !!

هذا الذى حدثتَه ، ولكنه بدل وغيّر ، ونطق على لسانك بما لم تنطق به !

قال خالد : فقمت عنهما ، وتركتهما يتراوضان[1] فى أمرهما ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة، ومعهم المال وتخوت الثياب[2] ، فقالوا لى : تقول لك أم سلمة : إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا.

أخطر المشكلات التى تثير الحقد والغيرة بين أفراد الأسرة

من أخطر المشكلات التى تثير الحقد والغيرة بين أفراد الأسرة: «**تعدّد الزوجات!**» .

حين يلجأ الرجال إلى الزواج من أخرى ، أو من أخريات هن مثنى وثلاث ورباع ممن أحلهن له الشرع بشرط العدل بينهن !

وإن كان من الصعوبة بمكان تحقيق العدل بينهن مهما حرص الزوج على العدل ، وقد شهد بذلك القرآن الكريم ، وربنا أعلم بنفوس الخلق ، فقال : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** (١٢٩) ﴾ [النساء : ١٢٩]

ومجرد الزواج . بأخرى يثير غيرة الزوجة التى يستولى عليها شعور بأن زوجها قد خانها .... ولم يف بعهده لها وأنها لم تعد أهلا لحبه ... وأن رأيه فيها قد تغير بين غمضة عين وانتباهتها !

وعند ذلك تشعر بأنها قد طُعنت فى كرامتها ، وجرحت فى كبريائها ،

---

(١) يتفاهمان ويتناظران . (٢) جمع تخت ، وهو وعاء تصان فيه الثياب .

فتعمل جاهدة للكيد للزوجة الثانية ، ومحاولة تشويه صورتها للتخلص منها !

ويعيش الرجل وزوجته وأولاده في صراع دائم ، وينعكس ذلك على الأولاد فيحرمون مما يحتاجون إليه من عطف ورعاية وحنان !

وقد لا يجدون المعاملة التي ترضيهم ، وتنمي عواطفهم ، وتهدئ بالهم!

وتبدأ معركة الزوجات الغيورات بالهمز واللمز والتنابز بالكلمات التي تكشف عن مشاعر الغيرة! ، وتفتح بابا إن لم يغلق دمّر وحطّم! ، وأتت نيران الغيرة على الأخضر واليابس !

وبالعدل وحسن التصرف يستطيع الربان الماهر قيادة سفينة الزوجية دون أن تغرق بمن فيها !

شَعْرَة معاوية تتعرض للقطع !

ترى ما الذي أغضب معاوية حتى انقطعت شَعْرتُه، وهو الذي كان يقول : «**لوكان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت لأنهم إذا شدوا أرخيت ، وإذا أرخوا شددت** » فمتى غضب ؟

قالوا : كان معاوية يقدّم أم ولده « يزيد» على أم ولده «عبد الله» . ولقد جلس معاوية مع الثانية يوما فمرت بها «ميسون» بنت بحدَل الكلبية أم يزيد ؛ فأتبعتها «أم عبد الله» عينها ، وقالت لها :

– لعن الله خَمْشَ[1] ساقيك !

تقصد بذلك ما كانت عليه «ميسون» أيام كانت تعيش في البادية ، وتنتقل بين الوديان بين الشّيح[2] والقيصوم؛ فتتعرض رجلاها للشوك .

فغضب معاوية ، وقال : أرأيت ذلك منها ؟!

فقالت : نعم !

فقال معاوية : أما والله على هذا – لما انفرجت عنه ساقاها خير مما انفرجت عنه ساقاك ! وهو يشير بذلك إلى نجابة « **يزيد**» ، وفصاحة لسانه ، وتوّقد لُبّه، وخمول أخيه « **عبد الله** » وتراخي همته عن طلب المعالي !

---

(١) الخمش : اسم لجرح البشرة ، وهو أثر الخمش . وخمشه : جرح بشرته .

(٢) الشيخ نبت سهلي ترعاه الماشية . والقيصوم قريب النوع من الشيح من نبات البادية .

* إن المرأة هى المرأة فى الحب .. والغيرة.. والفراش ، وأيضا فى نزعة الجنون الممزوج بالشراسة .. إذا أحست بأنثى أخرى تسرق زوجها !

* ومع أن معاوية يقول عن النساء :

«ما أكرمهن إلا كريم !

وما أهانهن إلا لئيم!» .

فقد دفعته غيرة إحداهن إلى الخروج عن طبعه بذلك الرد الحازم الحاسم المفحم المُلْجم !

فهل لنا من هذا الموقف عِبْرَة ؟!

حال زوج اثنتين !

* قلنا : إن من مثيرات الغيرة الزواج بأخرى ، وهناك تدب الغَيرة فى نفس كل من القديمة والجديدة ، وتبدأ المتاعب ، وتشتعل نار الكراهية !

* وقد قيل لأعرابى : من لم يتزوج « امرأتين » لم يذق حلاوة العيش ، فخاض التجربة ، وتزوج امرأتين ، وكانت تجربته مرّة، فندم ، وأنشأ يقول :

تزوجتُ اثنتين لِفَـــرْطِ جَـــهْلى
بِمَـــا يشْـــقَى به زوجُ اثنتَين
فـقلت : أَصِـيـر بينهـا خَـروقـا
أُنَعِّم بين أكـــرمِ نعـــجـــتين
فـصـرت كنعـجـةٍ تُضْـحى وُتمْسى
تَداوَل بين أخـــبثِ ذئبـــتين (١)
رضـــا هذى يُهـيـجُ سُـخْط هَذى
فما أعرى من احدى السخطتين (٢)
وألَقَى فى المعـيـشـةِ كُلَّ ضُـرّ
كـــذاك الضُّـــرّ بين الضَّـــرتَيْن
لهـــذى ليلةٌ ولتلك أخـــرى
عـــتـــابٌ دائم فى الليلتين !!

---

(١) تداول : تُتَداول . وتتقاسمها كل منهما ، وتتناوبان عليها .

(٢) ما أعرى : ما أسْلَم من سخْط كلتيهما .

أرأيتَ حالَ زوج اثنتين ؟

* ترى كيف حال من خبروها بأن زوجها قد تزوج عليها ؟!

وكيف صورها الشاعر فى أبيات معبرة ؟!

حال من تزوج عليها زوجها !

* جاء فى الأمالى لأبى على القالى :

أنشدنا أبو العباس عن ابن الأعرابى أبياتا تعبر عما تفعله الغَيْرة فى المرأة حين يتزوج الرجل غيرها جاء فيها :

خـــبـــروها بأننى قـــد تزوجتُ
فظلت تُكاتِمُ الغـــيظ سِـــرّا
ثم قـــالت لأخـــتـــهـــا ولأخـــرى
جَـزَعًـا : ليـتـــه تزوّجَ عَـشْـرَا
وأشـــارت إلى نســـاءٍ لديهـــا
لاتَرَى دُونهن للسِّـــرِّ سَـــتْـــرَا :
مـــا لقَلبى كـــأنه ليس منّى
وعظامى إخـالُ فـيـهن[1] فَـتْـرَا
من حـــديث نَمَى[2] إلىّ فظيع
خلت فى القلب من تَلَظّيه جَـمْـرَا

وتبدأ الغيرة بعد هذه الأخبار غير السارة تظهر على اللسان ! فما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه !

وكثيرا ما تدفع الغيرة زوجات الرجل الواحد إلى تبادل الكلمات الموحية المعبرة عما تكنه كل واحدة لأخرى ! ومن ذلك ما ورد فى تراثنا العربى من أن رجلا تزوج بأخرى على امرأته القديمة ، فكانت جارية الجديدة تمر على باب القديمة وتقول :

---

(١) إخال : أحسَب وأظن . وفترا : فتوراً وارتخاء وذلك من بوادر الشلل .
(٢) نمى إلىّ : بلغنى .

وما يستوى الرّجلان : رجلٌ صحيحةٌ

ورجلٌ رمى فيها الزمانُ فشُلّتِ

* وتمضى أيام لتعود وهى تردد:

وما يستوى الثوبان : ثوبٌ به البلى

وثوب بأيدى البائعين جديدُ!!

ولم يكن بُدّ من أن تخرجَ إليها جارية القديمة لترد عليها قائلة :

نَقِّلْ فؤادَك ما استطعتَ من الهوى

ما الحبُّ الا للحبيب الأول

كم من منزل فى الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأولِ منزل !!

ولكن من النساء من يأنفن الغيرة ، فتعال نتابع ما تضمنته كتب الأدب عن طبائعهن ، وفيها دروس !

أما تستحى الحرة أن تغار ؟!

للنساء طبائع مختلفة ، ومواقف متباينة!

كانت حفصة بنت سيرين أخت محمد بن سيرين تقول ، أما تستحى الحرة أن تغار ؟!

وأرادت يوما أن تدخل إلى بيتها ، فإذا زوجها مع جارية له على فراشها!

فأغلقت عليهما الباب وانصرفت !

فلما كان بعد أيام ضرب الجارية !، فقالت له : أتضرب العروس ؟!

فضحك وقال : قد علمت أنك قد عرفت ، والجارية لك !

لماذا أغار هارونُ الرشيدُ زُبيدةَ بأخرى؟!

جاء فى « الموافقات » : عن عبد الله بن نافع عن عبد الله بن مصعب قال:

شكا إلىّ « **هارون الرشيد** » وهو ولى عهد – أن « أم جعفر » لا تحمل !

فقلت له: أغرْها ! ؛ وحدثته حديث إبراهيم النبى – عليه السلام – فى «**سارة**» أنها كانَت لا تحمل ، فأخذ «**هاجر**» فحملت بإسماعيل فغارت سارة ! فحملت بإسحاق !

قال فاتخذ هارون الرشيد «**مَرَاجل**» فحملت بالمأمون وحملت «زُبَيدة» بالأمين .

وكان الرشيد يُجلُّ « أم جعفر» ويعظمها ، وكان يقول ! ربما أردت غشيانها، فأهابها فيأخذنى الزَّمَع[1] ، فيمنعنى منها !

وكانت تقول :

إياك أن تجعلنى فى منزلة إمائك اللاتى تريد التلذذ والتمتع بهن !

قال : وكنت أهاب الجلوسَ على فراشها مع جليل موقعها من قلبى – إعظاماً لها!

وإليك ألوانًا من الغيرة الممقوتة فى دنيا النساء قديما وحديثا !!

* * * * *

(١) الزَّمَع : الدهَش والخوف والارتعاد . والغشيان : الجماع .

ألوان من الغيرة النسائية الممقوتة!

تحدث بها الرائح والغادى، وتناولتها الصحف والمجلات

ومن الغيرة ما قتل!

يقول «الجبرتى» : إنه فى السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٢٨ هـ احتفل بعقد قران كريمة : محمد على باشا لمحمد بك الذى تقلد منصب «الدفتردار». وفى موضع آخر من تاريخ الجبرتى يقول:

إنه فى الثامن من المحرم سنة ١٢٢٩ هـ احتفل بزفاف ابنة الباشا إلى زوجها محمد بك «**الدفتردار**» ، وكان الاحتفال فى «**الأزبكية**».

وبقية حديث «ابنة الباشا» تذكره لنا زوجة «**القبرصى**» رئيس الوزارة العثمانية فى كتابها الذى أسمته : «ثلاثون سنة بين الحريم» :

«....كانت «**نازلى هانم**» شديدة الغيرة ، وقد حدث أن كان زوجها فى قصرها ذات يوم ، فقدمت له إحدى الجوارى الصغيرات السن قدحا من الماء ، فشرب ، وقال لها فى تلطف : «كفى يا «**كزم**»!.

وكلمة «**الكزم**» تفيد فى اللغة التركية معنى : «**الخروف الصغير**» وهو ما نعبر عنه بالحمل الوديع!.

«فلم تكد الأميرة الغيور تعلم بأن زوجها لاطف الجارية الصبية بهذا القول ، حتى اضطربت!.

ومالبثت أن أمرت بخنق تلك الجارية التاعسة الحظ ، ثم أمرت بأن يُطْهى رأسها ، ويوضع فى طبق ، ويقدم إلى زوجها على المائدة!

وقالت الأميرة للزوج ، وهى تعرض الرأس عليه:

«كُلْ قطعةً من «الكزم» الذى أعجبك!!».

ذعر الرجل ، ولم يملك إلا أن يُشيحَ بوجهه فى اشمئزاز عن زوجته الأميرة ابنة الباشا «محمد على[1]».

---

(١) طرائف من تراثنا العربى بقلم : محمد شوقى أمين عضو مجمع اللغة العربية – رحمه الله ، ولقد دفعتها الغيرة الى أن تقتل نفسا بغير حق فكأنما قتلت الناس جميعا ! وقد قالوا : «الجريمة لاتفيد!».

اشتعال نيران الغيرة فى عش الزوجية

بعد حفلة الزواج؟!

إخفاء الحقائق ، والكذب على الزوجة فى أول الأمر قد يعصف بالحياة الزوجية فلابد للمستور أن يظهر ، وما أشد وقع المفاجأة على نفس الحرة! فبعد حفلة الزواج ركب العروسان السيارة واتجها إلى عش الزوجية!.

وراحت العروس تتذكر أجمل اللحظات فى حياتها يوم أن التقت بعريسها فى أحد المتاحف حيث وجدت نفسها واحدة من المعجبات بلوحاته!.

كانت تسمع عنه ... واليوم تراه ....فتعجبها شخصيته كما أعجبها فنه !! إن شيئا مّا يجذبها إليه ...ويبادلها الإعجاب وكان موعد ... وكان لقاء بناء على طلبه لقاء أسرتها وفى زيارة قصيرة قدم الشبكة والمهر.

وفى ابتسامة لا عهد لها بمثلها قال لها : إنها أجمل لوحة لم يرسمها !.

لقد وفّى بوعده فأعد البيت ، والأثاث كما وعد والديها! ولقد حانت ليلة الزفاف ، وها هى ذى سيارته الفارهة تنقلهما إلى عش الزوجية ...وما أجمله من عش!

لقد وقفت السيارة أمام قصر جميل ، واصطحب العريس عروسه إلى الداخل!.

وها هى ذى تتنقل بين حجراته بينما أسرع زوجها إلى حجرة النوم ليغير ملابسه.

وفجأة يسمع صراخ عروسه ؛ فيسرع إليها ؛ فإذا هى تقف أمام إحدى اللوحات تسأل عن صاحبتها وصاحبة السرير الذى تعلوه اللوحة!

جذبها من يدها إلى حجرة نومه ، وأخبرها أن تلك الصورة لابنته «أسماء» التى أرسلها إلى أمها لتظل هناك طوال شهر العسل!.

وكان لهذا الخبر فى نفسها وقع الصاعقة ، فراح يخفف من آثاره مخبرا إياها بأنه ترك زوجته وهو فى سبيله لإنهاء إجراءات الطلاق ! ، ولم يرد أن يعكر صفو حياتها قبل أن يتم ذلك ، لكن الأم ترفض الطلاق بسبب الطفلة!.

وهنا سحبت يدها من يده ، وهوت بها على وجهه متهمة إياه بالخيانة

وإخفاء الحقيقة عنها!!.

وتملكتها الغيرة ، وأصيبت بهياج فأخذت تمزق وتحطم كل شيء حولها!!.

واحتمى العريس بإحدى الحجرات حين شاهدها تمزق المقاعد الوثيرة بسكين فى يدها!.

ولم تتوقف ثورتها عند هذا الحد بل أسرعت بإشعال النار فى الأثاث!!.

وهنا صاح الزوج طالبا النجدة من النافذة ...فأسرع الجيران لنجدته...

وألقى القبض على «**العروس**» ، وهى بفستان الزفاف الأبيض الممزق وقد تناثر شعرها بعد أن ألقت بطرحة الزفاف فى النار!

لقد خدعها وأخفى الحقيقة عنها يوم أن قال لها :

إنها ملهمته ، وحبه الوحيد!

ومعظم النار من مستصغر الشرر!!

لقد أخفى الحقيقة عنها ... وكذب عليها فأحست بالمهانة والصدمة ... وحق لها أن تفقد وعيها ! ، وأن تثور لكرامتها ! لكن الموقف لم تعد تسيطر عليه فطار صوابها!.

وكانت ثورة عارمة مدمرة محطمةً تناقلت الصحف أنباءها وإليك نوعا آخر من الغيرة!.

غيرة من نوع خاص!

وإن شئت فقل : هى غيرة مزدوجة !! غيرة من نوع خاص كلنا نعيش مظاهرها ، ولكننا لا نعرف الدوافع وراءها ، حتى جاء الأستاذ أنيس منصور فكشف لنا عنها ، وهو خبير بالنساء عليم ! ، فيقول:

بالتدريج تنتشر رائحة كريهة فى جو الأسرة .. إنها تشبه رائحة «**البوتاجاز**» .. عود كبريت واحد ينسف البيت ومن فى البيت!.

هذه الرائحة اسمها : الغَيرة!.

وهذه الغيرة «من نوع خاص» ؛ فالزوج يشعر أنه وحده الذى يعمل ، والذى يتعب ، وأنه «ثور» يدور فى ساقية وأنه كالنهر الذى يصب فى البحر محاولا أن يجعل ماء البحر حلوا ، ولكن دون فائدة!.

فى حين تجلس الزوجة فى البيت لاتقدّر معنى التعب ، ولا معنى الفلوس ، ولا معنى «الدوخة» التى يتحرك فيها الثور!.

ثم إن الزوجة وأولادها متماسكون معا ... إنهم مجتمع مترابط ...لهم مصالح مشتركة ، مع أن هذه المصالح المشتركة ليس لها إلا معنى واحد : هو الاستفادة من مجهود هذا الإنسان الدائر فى فلك التعب والشقاء!!.

أما الزوجة فلها رأى آخر...

فهي ترى أنها محبوسة فى البيت ... بين جدران أربعة ... وأن الزواج ليس إلا نوع من السجن الاختيارى ... ثم هو بعد ذلك سجن انفرادى ...ثم هو بعد ذلك سجن مع الأشغال الشاقة أما الزوج ، فهو حر ...فهو يروح ويجىء ، ويقابل ألوف الناس .. ويضحك وحياته مملوءة بأشياء جديدة. وهذا الجديد فى حياته هو الذى يجعله فى صحة جيدة ؛ فإذا جاء إلى البيت اتجه إلى المائدة ليأكل ... وبعد ذلك ينام بعمق ، فالبيت مكان لراحته ، ومكان لشقاء الزوجة والزوج لأنه شبعان من التغيير والتبديل ، لايريد أن يخرج ، ولا أن يذهب ليغير الهواء فحياته كلها خروج ، والهواء يدخل عليه من أى باب أو شباك.

وعندما يصعب التوفيق بين وجهتى النظر ؛ فإن رائحة كريهة أخرى تتسرب إلى جو البيت!

هذه الرائحة هى إحساس الزوجين بأن التفاهم بينهما صعب ، وبأن الرجل والمرأة ليسا من أصل واحد ، وأن المرأة ليست بنت حواء ، وإنما بنات حواء انقرضن من ألوف السنين!.

وإذا وصل الزوجان إلى هذا الاقتناع بهذا الرأى الأخير ، فلا داعى لأعواد الكبريت ؛ لأن الحياة تكون قد نسفت مع أول «أنبوبة بوتاجاز» اسمها : «الغيرة من وظيفة الرجل العامل ، ومن وظيفة الزوجة ست البيت!»

ومن الغيرة ما قتل!.

وأقول لمثل هذين الزوجين : لو نظر كل واحد من الزاوية التى ينظر منها الآخر لاستراح كثير من الناس ، وأراحوا!!.

حتى فى سن اليأس تكون الغيرة!

.. عَجَبى !!

إذا كانتِ سن اليأس عند المرأة تبدأ عند بلوغها الخمسين تقريبا نتيجة لتلك التغيرات الهرمونية والفسيولوجية وغيرها ...فليس معنى ذلك انتهاء نشاطها الذهنى أو الجسمى أو الجنسى!.

بل قد تظل المرأة محتفظة بأنوثتها ، ونشاطها ، وجمالها ، ودلالها ، وسحرها ، وفتنتها إلى أمد طويل!. وهذا ليس بعجيب فى دنيا النساء ! ، فكم من عجوز تبدو متصابية ! ، حتى ليصعب على الرائى أن يميز بينها وبين ابنتها!.

ويقول علماء النفس : إنه من الناحية النفسية قد تتشابه هذه المرحلة بمرحلة المراهقة عند الفتاة من حيث ازدياد القابلية للإثارة الجنسية!.

ومما يدل على ذلك تقليدهن الفتيات فى الملابس والتزين ، والسلوك ، والحركات ، والسكنات ، والتظاهر بالمرح ، وجنون الخيال ، وتكوين صداقات جديدة![1]» .

مما يعتبر ثورة على اليأس!.

أما الرجل ، فقد لا يجاريها – المسكين – فى هذا التطور ربما لأنه يشعر بمرحلة الشيخوخة ، وما يتبعها من يأس وخمول ، أو رضى بالواقع ، وبعدا عن تكليف الأيام ضد طباعها وتفرغا للحكمة والعقل بعد أن أعطى الشباب حقه.

وعندئذ تصاب المرأة بأزمات غير حادة ، حين ترى زوجها فاتر الشعور ... خامد العاطفة!.

وتتملكها الظنون ... ويعتريها الشك ... وتستولى عليها الغيرة . إنها تظن أنه قد انصرف عنها .. أو أنه يخونها ! ومن النساء من يلجأن فى سن اليأس إلى الدين ... أو إلى النشاط الاجتماعى المتزايد مما قد يخفف عنهن حدة الشعور بأنهن يقفن على عتبات الشيخوخة!.

وعلى المرأة فى هذه السن أن تعلم أن الأمومة ليست مجرد تعبير عن الأداء المباشر لوظيفة التناسل ، وإنما هى إشعاع وعطاء يمتد إلى كل نواحى النشاط

---

(١) سيكلوجية المرأة – الدكتور زكريا إبراهيم .

النسائى ، إنها تجربة حية خصبة تلازم المرأة فى كل مراحل حياتها طفلة ، ومراهقة ، وأما ، وجدة.

وعليها – أولا وأخيرا – أن تعرف أن انتهاء الوظيفة التناسيلة عندها لايعنى موت عاطفة الأمومة!.

وليس أدل على ذلك مما تقوم به المرأة حين تصبح جدة ، فإنها تجد نفسها تقوم بدور الأم الثانية – من جديد ، أو «**الأم المساعدة**» مع أولادها وأزواجهم وأولادهم فى جو من الود والوفاء ، وبذلك تؤدى دور الأمومة الحقة فى كل مراحل الحياة !، وتريح ، وتستريح!.

غيرة الحماة من زوجة ابنها ، أو من زوج ابنتها!!

نسمع كثيرا عن غيرة أُمّ الزوج من زوجة ابنها! وكثيرا ما تسبب هذه «الغيرة» ألوانا من الشقاء فى حياة الزوج ... والزوجة ... والحماة أيضًا!.

وذلك عندما تشعر الحماة أن شخصية دخيلة على الأسرة وهى شخصية «زوجة ابنها» ...جاءت فيما بين غمضة عين وانتباهتها لتنتزع منها «**قُرة عينها**» بعد أن تعبت فى تربيته ، وسهرت من أجل إعداده الليالى بل والسنين!.

وها هى ذى تسلبه منها عَيانًا جهارا ، ولا تخشى لومة لائم بعد أن فازت بحب الابن ، وظفرت برضاه ، واستَحوذت على قلبه ، فتحول إليها ..وأقبل عليها ! ، فإذا هى دنياه!.

وقد يرى الزوج أن أم زوجته (حماته) تدفعها مشاعر الغيرة إلى التدخل فى شئون الأسرة الجديدة أكثر مما ينبغى! فأحيانا يراها تثير الزوجة ضده.

وأحيانا يراها توقع بينهما مما يسبب كثيرا من المشكلات وتظهر على الساحة ألوان من الصراعات فى مستهل حياة جديدة ، يعيش فيها الزوجان بين أخذ ورد ، وشد وجذب!.

فتتبدد أحلامُهما الوردية ، تحت سحب الشك ، والغَيرة والتدخل الممقوت ! ولا حل إلا أن تعرف الأم واجبها!.

فواجب «الأم» أن تعتبر «**زوجة ابنها**» فى مرتبة ابنتها ، وأنها إنما جاءت لتسعده ، ولتملأ حياته أملا وحنانا ، ورحمة ...وأنها إنما جاءت لتعاونها ، ولتتولى عنها القيام بإسعاده ، وتحقيق رغباته!.

فواجبها عندئذ أن تتولاها بالنصح، وأن تنمى خبرتها فى شئون الحياة والبيت فى جو من المحبة ، وفى حدود ما يتطلبه الموقف، مسترشدة بقول الإمام الشافعى:

«**من نصح أخاه سرّا فقد نصحه وزانه!**».

«**ومن نصحه جَهْرًا فقد فضحه وشانه!**».

وعليها أن تضع أمام عينيها تلك الحكمة القائلة:

«**من غربَل الناس نخلوه!!**».

* وكذلك ينبغى أن يكون الموقف بالنسبة لأم الزوجة ، فعليها أن تعتبر زوج ابنتها بمنزلة ابنها ، وأنه عنصر جديد يضاف إلى الأسرة ، وسند لها ، عماد لابنتها بعد أبيها وأخيها وذلك يستدعى أن تبادله الثقة ، والاحترام لتعيش الأسرة فى جو من التفاهم والوئام ، والانسجام!.

وقد يتغلب الزوجان العاقلان على ما قد يحدث من مشكلات الغَيرة عند أمه، أو أمها فيما لو عاشا مستقلين عنهما فى «**سكن خاص بهما**» بعيداً عنهما ! وبخاصة فى مُستهَلّ حياتهما الزوجية!.

وعلى العكس من ذلك نجد أنه إذا اضطر الزوج ، أو اضطرت الزوجة إلى العيش فى مكان واحد مع الأم ..مع أمها .. أو مع أمه ؛ فعند ذلك يكثر التدخل فيما يعنى ، وفيما لايعنى ، ويزداد الخلاف والنكد ! و تتعدد الآراء ، ويصعب التوفيق!.

وإذا كان لابد من ذلك المسكن المشترك أمام «**المشكلة السكانية**» التى استعصى حلها ، فيجب أن يتحمل كل منهما رفقاءه فى المعيشة بصبر وأناة ، وحكمة ، ومداراة!.

وأن يكون التفاهم ، والحوار الهادئ هو السبيل لحل المشكلات! وأن يدفع كل منهما بالتى هى أحسن ، وأن يبذل الجهد للبعد عن إثارة المشكلات ، وإيقاد نار العداوة والبغضاء!.

وأن يشعر الجانب المضيف بأن للضيف حق الإكرام والاحترام!.

* وقد كان العربى الأصيل يقول:

وإنى لعبدُ الضيفِ مادام نازلا

وما شيمةٌ لى غيرها تشبه العبدَا

* ويقول آخر فى رسم السياسة لمن نزل ضيفا على غيره:

فدارهم ما دمتَ فى دارهم

وأرضهم ما دمتَ فى أرضهم!

والتمس لغيرك العذر ، وليكن شعارك:

*** لعلّ له عذراً وأنت تلوم ***

* وهون على نفسك ماقد يحدث فى محيط الأسرة الجديدة ، وقل:

*** إحدى يَدىَ أصابتني ولم تُرِد ***

* وبهذا تستريح ، وتريح ، وتجتاز تلك المرحلة الحرجة فى مستهل حياتك! وتطفئ نيران الغيرة!.

غيرة الأم من ابنتها

ذات يوم تقدم إلى البيت فتى أحلامها فإذا هو ملء العين والقلب .. زاده الله بسطة فى العلم و الجسم – وإذا هو لا يعيبه شىء!

وتفكر الأم فى نفسها ، وزوجها – رحمه الله – الذى لا يكاد يقارن بخطيب ابنتها مع أنها «أصبى» من ابنتها وأجمل ، فياله من نصيب ! ، وتشتد غيرتها من ابنتها!!

وتجتر أحزانها!!

ويستبد بها التفكير ، وتبالغ فى إكرام خطيب ابنتها ، والتودُّد له ، وتعتقد البنت الساذجة أن ذلك من أمها قمة العطف عليها ، وأنها – بحق – قد عوضتها عما افتقدته من حنان الأب ، ووقوفه إلى جانب ابنته فى هذه اللحظات الحاسمة من حياتها!.

وتكتشف البنت تلك الحالة العاطفية التى تمر بها الأم ، وعدم إقبال الخطيب على أمها ، وانصرافه عنها على الرغم من محاولاتها التودد إليه ، والتقرب منه، والتزين له!.

وتحار البنت ماذا تفعل ، وتدخُل عل أمها ذات يوم فإذا هى تبكى!.

وتسألها عن سر بكائها فتخبرها أنها لا تكاد تتحمل فراقها ، وأنها ترى أن يجمعهما بيت واحد حتى تسهر على راحتها!.

وتدرك البنت ما تدبره الأم للظفر بخطيب ابنتها ، وأن هذه الدموع ما هى إلا دموع التماسيح فتوحى إلى خطيبها برفض الإقامة معهم ، ويشاء الله أن يجمع بين العروسين فتكون البنت فى رفقة زوجها حين سفره معارا إلى إحدى الجامعات العربية بعيدا ...بعيدا عن الأم الغيور التى ظلت وحدها تعانى مرارة غيرتها!.

شجرة الدر ونهايتها المأساوية بسبب غيرتها

إنها أول ملكة بايعها المسلمون لتحكم مصر مدة ثمانين يومًا!

ولقد صدرت المراسيم بخطها ، حاملة توقيع «**أم خليل**» كما صُكت النقود باسمها.

وراح الأئمة فى المساجد يدعون لها فى خطبة الجمعة – والمصلون يؤمّنون – قائلين:

«اللهم احفظ الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب ، والدة المرحوم – بإذن الله – خليل ، زوج الملك نجم الدين أيوب».

وقد استطاعت شجرة الدر بفضل ذكائها الخارق ، وشجاعتها ودهائها أن تقود الجيوش فى فترة حرجة من تاريخ مصر ، وكان لها ما أرادت ، فهزمت الصليبيين ، وأسرت قائدهم فى «**دار ابن لقمان**» بالمنصورة ، ولم تطلق سراحه إلا بعد دفع الفدية!

واستطاعت أن تحرر دمياط والمنصورة من أيدى الفرنجة (**الفرنسيين**).

ومثل هذه «**المرأة**» يصدق عليها قول المتنبى:

فلو كان النساء كمثل هذى
لفُضِّلتِ النِّساءُ على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمسِ عيب
ولا التذكيرُ فخر للهلال

ويقول المؤرخون: إنها كانت جارية ذات جمال وفتنة ، تزوجها الملك الصالح: «**نجم الدين أيوب**» لتحتلّ لديه مكانة خاصة فور توليه العرش.

واستطاعت بذكائها أن تدير دفة الملك معه ، فزادت مكانتها لديه وبخاصة بعد أن أنجبت له ولدا سميت باسمه «**أم خليل**» وإن لقى ربه بعد قليل.

وعندما تعرضت مصر للحملات الصليبية شاء القدر أن تواجه شجرة الدر تلك الحملة الصليبية الجديدة بقيادة لويس التاسع عام ٦٤٧هـ.

فعندما استطاعت الحملة الوصول إلى دمياط أرسل لويس التاسع إلى زوجها «**نجم الدين**» رسولا يطلب منه التسليم ويحذره من وقوع كارثة مدمرة بالبلاد إذا لم يبادر بالتسليم! وكان نجم الدين مريضا فأشرف على تحصين المنصورة واشتد عليه المرض فمات!.

وهنا أدركت شجرة الدر خطورة الموقف، فأخفت نبأ موته ، وأمرت بدفنه سرا، وكأن شيئا لم يكن!.

وظلت تصدر المراسيم باسم السلطان ، وأرسلت إلى «**توران شاه**» ولى العهد ليحضر على جناح السرعة!

وفى تلك اللحظات العصيبة علم الصليبيون بوفاة الملك ، فأعدوا جيوشهم لمهاجمة «المنصورة» بضراوة ووحشية! فأصدرت شجرة الدر أوامرها إلى قادة الجيش لكى يقسموا يمين الولاء لتوران شاه ، باعتباره ملكا للبلاد.

واستطاعت بحكمتها وتدبيرها أن تحقق النصر لبلادها.

ولكن «**توران شاه**» بعد هذا العنصر العظيم لم يحفظ لها جميلها ، وتنكر لها ، وأرسل يهدد القادة الذين حققوا النصر العظيم!.

وهربت شجرة الدر خوفا على حياتها ، وقرر الأمراء القضاء عليه مستعينين بالمماليك وشجرة الدر ، وكان لهم ما أرادوا فتخلصوا منه بقتله!.

ونادى الجميع بشجرة الدر سلطانة على مصر.

وتم تعيين «**عز الدين أيبك**» قائدا للجند.

واستطاعت شجرة الدر على مدى ثمانين يوما أن تحكم مصر بكفاءة عالية واقتدار ، وأطلق عليها لقب:

الملكة عصمة الدين شجرة الدر ، والستر العالى والدة الخليل المستعصمية.

وليس أدل على قوتها فى تلك المدة من أنها أطلقت سراح ملك فرنسا وأفرجت عنه بفدية بعد أن وافقوا على تسليم دمياط إلى المسلمين!.

ولكن الخليفة ببغداد لم يعجبه ما كان من تولية شجرة الدر؛ فقررت التنازل عن العرش برضاها لتحفظ للبلاد وحدتها ، وتجنبها الفرقة والخلاف.

وهنا أشار عليها الأمراء والقضاة أن تتزوج «**عز الدين أيبك**» قائد الجيش ، ويولوه ملكا عليهم، فوافقت ، وتم زواجهما بالفعل سنة ٦٤٨ هـ.

ولكن «**عز الدين أيبك**» بعد أن تولى الملك أراد التخلص منها والاستقلال بالحكم ، والزواج من أخرى !

وحين تأكد لها ذلك بإخراجها من القلعة إلى دار الوزارة بالقاهرة أحست بأنه ينوى استقبال عروسه الجديده بالقصر ، وبأنه ينوى الخلاص منها!.

وهنا استولت عليها الغيرة ، فانتقمت لنفسها «**وتغدت به قبل أن يتعشى بها**» كما يقولون!.

وعندئذ توجه المماليك إلى القلعة ، وقبضوا على كل من فيها ، ومعهم «شجرة الدر» التى اعتقلوها بقلعة الجبل!.

وتولى الحكم «**المنصور بن أيبك**» من زوجته الأولى التى طلقها أيبك إرضاء لشجرة الدر ، فلم ينس هو وأمه «**أم على**» أن ينتقما ممن كانت السبب فى طلاقها أولا وقتل زوجها ثانيا!.

وتولت أم على .. أم السلطان منصور قتلها ضربا «**بالقباقيب**» حتى ماتت بين يديها مضرجة بدمائها!. إنها الغيرة!!.

إياكِ ياسيدتى والشك!

(الشك ... هل يُحيى الغرام ، أم يقتل الحب؟!)

وكما جنت براقش على نفسها تجنى الغيور بشكها فى زوجها ، وملاحقتها له صباح مساء ، مما دفع زوجها إلى طلاقها كما حدثنا بذلك الكاتب الصحفى الأستاذ «مصطفى أمين» – رحمة الله عليه – فى إحدى يومياته فيقول:

* يرى الشاعر «أحمد رامى» : أن الشك يُحْيى الغرام ، ويزيد نيرانه لهيبا!.

* وفى رأيى أن الشك يقتل الحب ، ويُحَوّل ناره إلى تراب ، وقد يُحتمل الشك عندما يكون أشبه «بشكة الدبوس» فإذا تضاعف أسال الدم ، وأمات!..

أعرف سيدة اسمها «**شَكْ شَكْ هانم**» : لا تثق بأحد : تشك فى كل إنسان . إذا أنت ابتسمت فى وجهها فأنت تغازلها ، وإذا عبست فى وجهها فأنت تريد أن تذبحها ، وإذا تجاهلتها فأنت تحتقرها!.

وهى متزوجة من «**طبيب شاب**» يحبها ، ولكن حياته أصبحت كفقراء الهنود الذين ينامون على فراش من المسامير. وهذه المسامير هى شكوك : «**شك شك هانم**» إذا عاد إلى بيته متأخرا ، فلابد أنه كان يرتكب خيانة زوجية.

وإذا عاد مبكرا فهو يحاول التستر على خيانة زوجية.

وإذا لم يخرج من بيته على الإطلاق ، فلابد أنه متعب نتيجة ارتكابه خيانة زوجية فى اليوم السابق.

ثم يقول:

واليوم زارنى هذا الطبيب ، وسألته عن رأيه فى الزواج ! فقال لى:

إنه أحب الزواج جدا جدا حتى إنه تزوج من زوجة ثانية!.

وسألته : كيف فعلتها؟!.

قال : لاشىء ! تأخرت مرة عن زوجتى الأولى ثلث ساعة! إن «**شك شك هانم**» جنت على نفسها ؛ كما جنت براقش!.

الأثر العكسى للملاحقة الغيور لزوجها!

آه لو تعلم كل امرأة تُظهر الغيرة لزوجها بين الحين والحين أنها تدفعه إلى الإثم مَا فعلت!.

يقول عميد الأدب العربى فى «**جنة الحيوان**»:

* مازالت امرأته تُظهر له الغيرة ، حتى أغرته بالإثم فتورط فيه!.

* ومازال هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه!.

* وما زال ابنه ينهى صاحبه عن «**خليلة السوء**» حتى اتخذها له زوجة!.

أليس من الخير أن يتدبر الناس قول أبى نُواس:

★ دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنّ اللومَ إغراء ★

فربَّ سكوت أقرب إلى الموعظة من تلك الملاحقة باللوم!

إن كثرة اللوم ... والجدال .... والتأنيب ... والعتاب تحدث أثرا عكسيا ... فإذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده!

نعم إن اللوم إغراء !! ، والنفوس لها مفاتيح ، وعلينا أن نتعلم كيف يكون التخاطب والتفاهم ! ومتى ؟.

ومن الناس من إذا سكت أسمع ، وإذا تكلم أقنع!

وها هو ذا ناصح أمين للمرأة ، وخبير بالنساء عليم يقول لها:

* غيرتكِ من امرأة أخرى أمام زوجك تفتح عينيه على ما خفى من أمرها!.

* فعليكِ بالتجاهل – بوعى – وكأن شيئا لم يكن! ثم عليك أن تقومى – فيما بعد – بتقليد مواطن حسنها! فإذا فطن لذلك ، فإياك والاعتراف!.

وأنكرى أنك لاحظت شيئا فيها مما يقول ....ودون أن تختمى بقولك الساذج : «من هذه التى أغار منها؟!».

وأقول تذكرى جيدا قول أبى الأسود لامرأته:

خُذِى العفوَ[1] منّى تستديمى مودّتى ... ولا تَنْطِقى فى سَوْرَتى حين أغضَبُ

فإنى وجدت الحُبَّ فى الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ

ولا تنقرينى نقرك الدُّفَّ مرّةً ... فإنك لا تدرين كيف المغيّبُ

ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ... ويأباك قلبى ، والقلوبُ تَقَلَّبُ

وفى وصية ذهبية لكل امرأة حريصة على زوجها ، وتظفر بحبه لترفرف على بيتها أعلام السعادة الزوجية ، تقول السيدة عائشة لامرأة جاءت تسألها فى مسأله دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها!.

«إن كان لك زوج ، فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى[2]» . فهل وعيت الدرس ياسيدتى ؟!

إن الزوجية فن قوامه : الحب ... والحكمة ... والرفق والكلمة الحلوة!.

والآن تعالَ إلى غيرة الرجال!

---

(١) العفو: الفضل الذى لاعُسْر فى إعطائه !

(٢) نساء النبى ﷺ للدكتورة بنت الشاطىء ص٩.